

الشيخ صالح الفرفور

العالم العامل والأديب الشاعر

بقلم د. محمد حسان الطيان

رئيس مقررات اللغة العربية بالجامعة العربية المفتوحة

عضو مراسل بجمع اللغة العربية بدمشق

مقدمة:

إذا أردت أن تنظر إلى العلم يكسوه إهابٌ من عمل، وإلى القول يتحول إلى جدٌ وفعل، وإلى الحرف يغدو قصيدة من شعر، وإلى البيان يحول سحراً على اللسان، فانظر إلى شيخنا العلامة محمد صالح الفرفور - رحمه الله وأعلى في الجنان مقامه -

وأراك تفعل ما تقول و بعضهم مَذِقُ الحديث يقول ما لا يفعلُ

ذاك الشيخ الجليل الذي بنى للعلم دولة، وأسس للخلق والتربية أمة، وشيد للأدب والشعر مدرسة، ونفث في الأمة روح الدعوة، وربى أجيالاً من طلاب العلم أصبحوا منارات يهتدي بها، وعلامات يعول عليها، وجذوات يقتبس منها.

فكان بحق مثلاً حياً لكل من عاهد فوفى، وعمل فعمل، وجاهد فصدق.

ولعله - والله حسبي - من النخبة الخيرة التي وصفها جل وعلا بقوله في محكم كتابه: (من

المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا

تبديلاً) [الأحزاب: ٢٣]

عاش ما عاش للعلم، وطلب العلم، ونشر العلم، وبناء صروح العلم، حتى استبدَّ العلم بكل اهتماماته، وغلب على جميع أمره، فما تكاد تراه إلا في مجلس علم حتى لو كان في بيته وبين ذويه وأهليه.

تفجّر العلم من عليا شمائله كما يسحُّ بوسط الروض سلسالُ

عنايته رحمه الله بأهل بيته وأولاده:

ما أعلم رجلاً من رجالات الأمة - فيما أدركت من زمن - أخذ أهله بالعلم أخذاً حازماً لا يلين كما أخذ الشيخ صالح أهله وبيته، بل حتى بناته، لم يغادر منهم أحداً إلا صنعه على عينه عالماً متضلعاً من علوم الشرع والأدب والعربية، وخطيباً مصقفاً لا تخبو له كلمة، ولا تلين له قناة، ومرتباً داعيةً لا تأخذه في الله لومة لائم، بدءاً بأكبرهم:

أستاذنا وشيخنا الشيخ الدكتور محمد عبد اللطيف الفرفور.

ثم شيخنا الشيخ الدكتور حسام الفرفور.

ومروراً بالشيخ الدكتور ولي الدين الفرفور.

والدكتور عبد الرحمن الفرفور.

والدكتور نصر الفرفور.

والدكتور عبد الله الفرفور.

وانتهاءً بأخينا الشيخ شهاب الدين الفرفور.

دع عنك البنات الداعيات: فاطمة، ولطفية.

لقد كان حقاً من خير الناس لأهله، مؤتسباً برسول الله ﷺ حيث يقول: "خيركم خيركم

لأهله وأنا خيركم لأهلي".

الحديث أخرجه الدارمي (2265) قال: أخبرنا محمد بن يوسف. قال: حدثنا سُفيان. و"أبو

داود" 4899 قال: حدثنا زهير بن حرب. قال: حدثنا وكيع.

و"الترمذي" 3895 قال: حدثنا محمد بن يحيى. قال: حدثنا محمد بن يوسف. قال: حدثنا سُفيان.

كلاهما (وكيع ، وسفيان الثوري) عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة فذكره. وإذا لم تكن الخيرية بالعلم الذي رفع المولى سبحانه أصحابه فبم تكون؟! ومن أولى الناس بالانتفاع بالعالم، أليسوا أهله وذويه:

ومن ذا الذي ترجو الأبعد نفعه إذا هو لم تصلح عليه الأقاربُ

نشأهم جميعاً على حب العلم، وطلب العلم، ومصاحبة أهل العلم. فترى الواحد منهم لا هم له إلا العلم، فهو كليفٌ به، بل همٌ له، مغرماً فيه، لا يتغنى إلا به، ولا يتفاخر إلا بتحصيله.

وقد أخذوا عن والدهم خلة لم تخطئ واحداً منهم، ألا وهي الثقة المطلقة بالله سبحانه ثم بما حصلوا من علم، فهم لا يرون لأحد سبقاً عليهم في أي شأن من شؤون الحياة، لأن ما عندهم أعلى وأثمن، وأعلى وأبقى، وأعز وأسمى.

إنه العلم الذي قال في حقه الحسن البصري رضي الله عنه: ((لا إله إلا الله، كادت العلماء أن تكون أرباباً، كل عز لم يؤكد بعلم فألى ذل يؤول)) [العقد الفريد لابن عبد ربه 291/1]

وكأنهم المثل الحي لقول الحبيب المصطفى صلوات الله عليه: "من أوتي القرآن فرأى أن أحداً أوتي خيراً منه فقد حقر ما عظمه الله" [رواه النووي في كتابه: آداب حملة القرآن]

عنايته رحمه الله بتلامذته:

أما ما صنعه الشيخ بتلامذته وبمن حوله فأمر عجب، حول فيه الرمم إلى قمم، والجبناء إلى شجعان، والجهال إلى علماء، فتخرج به أفذاذ العلماء والخطباء والدعاة والمرين، وصاروا من بعده ملء العين والبصر والسمع والأذن، وعلى رأسهم:

شيخنا ريحانة الشام العلامة المقرئ عبد الرزاق الحلبي - أمتع الله به -.

والشيخ رمزي البزم - رحمه الله -.

والشيخ العلامة النظار أديب الكلاس - حفظه الله -.

والشيخ إبراهيم اليعقوبي - رحمه الله -.

ومحدث الشام الشيخ عبد القادر الأرناؤوط - رحمه الله -.

والشيخ العلامة المحدث المحقق شعيب الأرناؤوط - حفظه الله -.

والشيخ موفق نشوقاتي - رحمه الله -.

والشيخ أحمد رمضان - حفظه الله -.

والشيخ عبد الفتاح البزم - حفظه الله -.

ناهيك عن أولاده الذين سبق ذكرهم.

على أن همة الشيخ لم تتوقف عند طلابه المقربين وأحبابه المنتخين الذين كان يخصهم بأكثر من عشرة دروس في اليوم الواحد، ولا يتقطع درسه لا في عطلة ولا في عيد، بل إن من طريف ما أثر عنه أنه لم يتغيب عن درسه حتى في فجر عرسه!

من مزايا الشيخ رحمه الله:

وقد حدثني شيخنا الشيخ شعيب - وكان من خُص أصحابه لزمه نحواً من خمسة عشر عاماً وأخذ عنه من العلوم والآداب والفنون ما لا يحصيه إلا المتخصصون فيها - أن الشيخ صالحاً كان إلى كل خصاله الحميدة وعلومه المستفيضة ممتازاً بمزيتين رفيعتين هما:

1- الكرم.

2- الشجاعة.

فقد كان سخياً على تلامذته وطلابه يتعهدهم بعطاياهم مع ما يتخولهم به من موعظة وما يقرئهم من علوم، وكان شجاعاً جريئاً لا تأخذه في الله لومة لائم.

من مآثر الشيخ رحمه الله:

ولم يقتصر نفعه وفضله على هؤلاء المقربين، وإنما امتدَّ ليشمل طلبة العلم من كل أصقاع الدنيا، وذلك حين أسس معهد الفتح الإسلامي الذي أصبح مهوى الأفئدة وملاذ طلاب العلم يجدون فيه كل ما يحتاجون إليه من علم وسكن وطعام وتربية، وقد عم نفعه وشاع أمره حتى جاوز عدد جنسيات الدارسين فيه المائة، يدرسون فيه جميع العلوم الشرعية من قرآن وتجويد وتفسير وحديث ومصطلح وأصول وتوحيد وفرائض وغيرها، كما يدرسون فيه العلوم العربية بأنواعها كالنحو والصرف والبلاغة والأدب والعروض والخطابة، بل إن ما يدرسونه من بعض علوم العربية يفوق ما يدرسه المتخصصون في أقسام اللغة العربية، وقد بلوت ذلك بنفسي؛ إذ درّست بعض علوم العربية في جامعة دمشق وفي معهد الفتح وقسم التخصص فيه، فوجدت البون شاسعاً في المادة العلمية المقررة، وفي تلقّي الطلبة لها، ومقدرتهم على فهمها، وحسن استجابتهم لكثير مما يُطرح عليهم فيها. ويكفي أن أذكر أن ثمة كتابين جليلين في علوم العربية يدرّسان في معهد الفتح، لا يعرفهما كثير من خريجي أقسام اللغة العربية في جامعاتنا، بله أن يدرسوهما، وهما: دلائل الإعجاز للجرجاني

الاقتراح في أصول النحو للسيوطي.

من علوم الشيخ رحمه الله:

وشيخنا الشيخ صالح - برّد الله مضجعه - حجة في علوم شتى وبدع في فنون مختلفة:

أتقن فقه الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان حتى صار مرجعاً فيه.

وحذق أصول الفقه حتى لكأنه شاطبي عصره.

وولج باب التفسير بعد أن استتبّ له علوم القرآن المختلفة فكان مدرسة تخرج بها الكثيرون ونهل منها العلماء والمتذوقون.

حدثني غير واحد من تلامذته وأبجاله أنه كان يضع النص القرآني على السبورة ثم يلتفت إلى طلاب الحلقة يناقشهم فيه، فلا يدع فناً من فنون العربية واللغة والنحو والبلاغة والبيان والإعجاز والفقه والأصول إلا خاض فيه، حتى يدع النص وقد أوسع دراسة وفهماً وتحليلاً وعلماً.

اهتمامه رحمه الله بالعلوم الكونية:

بل إنه تجاوز علوم الشرع واللغة إلى علوم الفلسفة والمنطق والفلك والحساب وغيرها .. وله في الفلك وعمل الاضطراب جولات وجولات. بل إن له في علم التعمية - الشفرة - مشاركة لا يعلمها كثير من الناس، وعندما كنا نهيئ لإخراج الجزء الأول من كتابنا (علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب - الشفرة وكسرهما) راعني أن شيخنا يعلم الكثير عن هذا العلم - أعني التعمية - وتضم مكتبته العامرة رسائل مهمة فيه وعدني بالاطلاع على بعضها، وحالت حوائل المرض والبعد دون ذلك.

بلاغة الشيخ رحمه الله وفصاحته:

والشيخ إلى هذا وذاك أديب قد أمثلك ناصية البيان، وخطيب مصقع ذرب اللسان، دانت له المنابر والمحافل في كل زمان ومكان، وشاعر مفلح مطبوع يرقى شعره إلى مصاف الشعراء الفحول، ولا غرو فحبّ العربية عنده من الدين، وتعلمها وتعليمها لا يقل في نظره أهمية عن تعليم أي فن من فنون الشرع الحنيف إن لم تكن هي الأهم والأولى، لأنه كان يؤمن أنها الوسيلة التي لا بد منها لتعلم علوم الشرع المختلفة، ومن أفقدها فلا خير فيه ولا علم عنده ولا نفع يرتجى منه. من أجل هذا أعطاهما الشيخ رحمه الله وقته وأكد في طلبها، ومنحها ذوب نفسه، فكان حفيماً بها، محباً لها، كلفاً بدروسها، مفتناً في تعليمها على اختلاف فنونها. وله في ذلك مؤلفات بلغت الغاية في البلاغة والبيان، وغدت نصوصاً تدرس في مقررات الأدب سماها: سلسلة الخلود (من نفحات الخلود، من نسيمات الخلود، من رشحات الخلود).

دع عنك ما ألفه في شتى العلوم والفنون وأضفى عليه من أسلوبه وديباجته مسحة أدبية عالية.

كما أن له ديوان شعر ما زلنا نتطلع إلى نشره، يشتمل على قصائد من عيون الشعر تشهد بعلو كعبه وسماحة طبعه وقوة عارضته، ولا تتسع هذه العجالة لإطلاع القارئ عليها.

بيد أنني سأقتصر على إيراد أبيات له من قصيدة عصماء ما سمعها أحد إلا خلبته وافتتن بها

افتتان ذواق الجمال بالغادة الحسناء ترفل بأهبي حلة وتميس بأرق دل:

وأصبح الحفل من ذكراك نشوانا	أحيانا حبك يا مختار أحيانا
قد يفضح القلب دمع العين أحيانا	مهما كتمت لظى شوق يؤرقني
وشب فيك فذق يا قلب أشجانا	يا قلب أنت جنيت الحب من صعر
كما يهز نسيم الصباح أفنانا	يهزني طربا ذكراكم أبدا
والروم قد عبدوا صلبا و أوثانا	في الفرس قد سجدوا للنار مسعرة
جاروا عليهن تضليلا و بهتاننا	والعرب قد وأدوا عار البنات وقد
ولا أت دهرها بغيا و عدوانا	حرمت وأد التي لا ذنب تعرفه
حتى جعلت لها من ذلها شاننا	رفعت من شأنها و الكل يمقتها
تحت الخنوع و تحت الذل أزماننا	حررت بالدين أعناقنا قد انسجنت
من جور ظالمها تُصليك نيراننا	إن النفوس وإن باتت على مضض
و لا يعرّتك ثوب الضعف أحيانا	فاعدل بما بينها و اراع كرامتها
هل يستوي عجم مع نسل قحطاننا	قالت قريش أيا للعرب تسوية
يأتيك كل كريم القوم مدعانا	نح الصعاليك واستر شد غطارفنا
وهل يسوي طير القوم عرياننا	واجعل لنا ميزة عن أهل صفتكم
منا بلال وزد في الآل سلماننا	أجبت تبت يدا عمي أبي هب
و إن أكرمنا لله أتقانا	إنا عبيد و رب العرش بارئنا
تذود عنهم صناديدا وفرساننا	والله لو لم تكن في الحرب مسعرها
و لم يهزوا على الأعداء مرانا	لم يطلبوا الموت في هيجاء طاحنة

و لا تخَلِّ راعي الغار عُريانا	و لا أتى عمرٌ في نصفِ صَفَقَتِهِ
ذادوا عن الدين فرسانا و ركباننا	أنعم بهم صحبةً غرّاً ميامنةً
و الحاملين إلى الإنصاف قرآنا	الشاهرين على الإلحاد سيفهم
فأعنتقوا لك أرواحا و أبدانا	بل هيمنت روحك العظمى مرفرفةً
تسمو على الشعب إيثارا و إيمانا	و ما القيادة إلا روح قائدها
أحجَلت قِسا و سحبانا و حسانا	أتيتهم بكتاب الله معجزة
قولٌ بليغٌ بآياتِ لِعُمرانا	ألقي لبيدُ عصاه حين أعجزه
شَتَّانَ شعرٍ و آيُ الله شَتَّانا	و لم تجد بعدُ في شعرٍ قريحتهُ
رغم الأنوفِ و إن شانوه بُهتاننا	ذاك البيانُ الذي تبقى عجائبه
فالوجدُ أضرمَ في الأحشاء نيراننا	لا تعذلوني إذا ما الحبُّ تيمني
حَبَّاه مولاة قرآنا و تبياننا	ماذا أقول لفخر الكائنات و من
بل أنتَ فوقَ جميع الخلق إيماننا	ما أنتَ بالكون ربًّا لا ولا بشرا
مما جنتَ أرتجي عفوا و غفرانا	بدأتُ في مدحه و النفسُ في حجل
أرجو الشفاعةَ إكراماً و إحسانا	جعلت بآبي رسول الله ملتصقا
عبد غدا في المديح اليومَ حسانا	يا ليتَ شعري وهل يحظى بروضتكم
يسكبُ الدمعَ فوق الثُّرب هَتَّانا	و هل يُمرِّغُ خدًّا تحت أرجلكم
شمسٌ و غرَّدتِ الأطيَّارُ ألحانا	عليك مَنِّي صلاةٌ كلما طلعت

والحق أن هذه القصيدة منبها على ما وراءها من رائق شعره، وفصيح بيانه، وبديع كليمه.

هذا وقد بلغ من حبه للغة، وشغفه بأصولها وفقهها، أن نسخ مخطوط سر صناعة الإعراب لابن جني في الخمسينيات من القرن الماضي، أي قبل أن يفكر أحد في تحقيق هذا السفر العظيم، وكان يعتزم تحقيقه مع شيخنا الأستاذ أحمد راتب النفاخ رحمه الله لكن صارفاً صرفه كما حدثني أستاذنا النفاخ رحمه الله وغفر له.

ومن آيات عنايته بهذا الفن من اللغة - أعني فقهها وأصول نحوها - أنه توفر على تدريسه في معهد الفتح الإسلامي لطلاب السنوات الأخيرة طول عمره، لم يدع أحداً يشركه في ذلك حتى وافته المنية، وكانت له عناية خاصة بالكتاب الذي قرره لهذه المادة وهو :

"الاقتراح في أصول النحو" للسيوطي حتى إنه وضع شرحاً له سماه: "الإفصاح شرح كتاب الاقتراح" ما زلت أتطلع إلى إخراجها وأحث أبناءه على ذلك، ولا سيما أبي تشرفت بتدريس هذا الكتاب في المعهد نفسه لمدة تزيد على عشر سنوات (1987 - 1999).

و إن أنسَ لا أنسَ مجلساً أديباً أسوعياً خصني الشيخ به مع ابنه الحبيب الشيخ الدكتور حسام الدين، قرأنا فيه على الشيخ فصلاً من:

كتاب الكامل للمبرّد

وكتاب العمدة لابن رشيق القيرواني في بيته العامر بحي مسجد الأقباب بدمشق الشام، فكنا نحتلس من يد الدهر ساعات عشنا بها زمناً رغداً ما جاد الزمان بمثلها، نحتني من أدب الشيخ، وتقطف من جناه، ونحلق في سماه، ونرتع في رياضه، ونحظى بدرره وبدائعه.

من ذلك مثلاً - والأمثلة كثيرة لا تحصى - أنه صحح لنا بيت المتنبي المشهور:

وَقِيدَتْ نَفْسِي فِي ذَرَاكَ مَحَبَّةً وَمَنْ وَجَدَ الْإِحْسَانَ قِيداً تَقِيداً تَقِيداً

فقال ذراك بالفتح لا بالضم - خلافاً للشائع على ألسنة الكثيرين، لأن الذرا هو الكنف. ولئن صدق هذا البيت في أحد ممن نعرف ليصدقن في شيخنا رحمه الله؛ فقد قيّدنا بإحسانه، وأسرنا بمحبته، وأفاننا بجليل علمه وأدبه.

زيارات الشيخ رحمه الله لأحابه:

وكان حفيماً بنا، يرعانا ويتفقدنا، ويتحولنا بالموعظة في مسجد السادات، ويخصنا بجلسات في غرفة الأذان، وزيارات لبيت والدي رحمه الله وأحسن إليه. أذكر أنه زارنا في العيد مرة وبصحبه ابنه الشيخ حسام، ولما قدمت له الضيافة لاحظ أي زدت له في صحنه من أقراص المعمول عن القدر المعتاد، فما كان منه إلا أن زاد قرصاً آخر وهو يقول: زد يا با زد هذا لا يكفي، فضحكنا جميعاً.

وكنت مرة في زيارته عام 1978م مع بعض الصحب والإخوة فأشار إليّ قائلاً: تعال يا حجي فاعترض أحد الصحب موضحاً بأنني لم أحج بعد، فابتدره الشيخ قائلاً: إن من أساليب العربية في المجاز أن تطلق على الشيء اسم ما سيؤول إليه، كقوله تعالى: (إني أراني أعصر خمراً) [يوسف: ٣٦] مع أنه يعصر العنب الذي سيؤول إلى الخمر، وإن الشيخ دعاني بالحجي تفاعلاً بأني سأحج إن شاء الله تعالى، فوالذي نفسي بيده لقد حججت في ذلك العام نفسه، وأنا أبعد ما أكون عن الاستعداد للحج أو التفكير به، فسبحان من أهدى شيخنا الصواب، وأجرى على لسانه حسن الجواب.

ولما علم أي مسافر إلى تركيا عام 1981م شرفني بتكليفي بشراء كتاب: (حاشية شيخه زاده علي تفسير البيضاوي) مع أن مكتبته عامرة بمختلف التفاسير، ولكنه طلب العلم الذي امتد من المهدي إلى اللحد، وفرحت بهذا التكليف، وكان شراء الحاشية من أولى المهام التي أنجزتها في اسطنبول، وعدت بالمجلدات الأربعة، ليرد لي الشيخ كل قرش دفعته ثمناً للحاشية، ولم تجد محاولاتي في صرفه عن ذلك.

مجلس الشيخ:

وكان آخر ما نعمت به من صحبة الشيخ - أجزل الله عطاءه - مجلس الأربعاء الذي كان ينعقد في بيته بعد العشاء، ويؤمّه نخبة من أهل العلم، يقدمهم شيخان جليلان يكتنفان شيخنا الجليل، هما:

الشيخ عبد الرحمن الشاغوري - رحمه الله وأسبغ عليه رضوانه - والعلامة الشيخ أديب الكلاس - عافاه الله وأمتع به -.

ويُستهلُّ المجلس بآيات كريمات من كتاب الله عز وجل يرتلها ابن شيخنا الأصغر الشيخ شهاب الفرفور، ثم يبدأ الدرس وهو يشتمل على كتابين نفيسين: شرح الحكم العطائية. ونوادير الأصول للحكيم الترمذي.

يقرأ الشيخ أديب ويعلق شيخنا الجليل، ويشارك الشيخ الشاغوري بنشر بعض الفوائد والحكم وإنشاد بعض الأشعار والآثار، ثم إذا ما انتهى الدرس تشنفت الأسماع ببعض الأناشيد التي كان لي شرف المشاركة فيها مع شيخنا الشيخ حسام وأخينا الشيخ شهاب.

ولا بد بعد ذلك كله من القرى، وأيُّ قرى أطيب من قرى شيخنا، إنه قرى ابن جعفر الذي قال في حقه الشماخ:

إنك يا بن جعفر خير فتىٍّ و خيرهم لطارقٍ إذا أتى
وربَّ نضوٍ طرقت الحىُّ سُرى صادف زاداٌ وحديثاً ما انتهى
إن الحديث جانب من القرى

رحيل الشيخ:

ولعل خير ما أحتم به هذه الكلمة أبيات نظمها شيخنا الشيخ شعيب في وداع شيخه الشيخ صالح عندما ذهب إلى الحج في أواخر الخمسينيات، وهي تحكي لسان حالنا جميعاً عندما فارقتنا الشيخ ملتحقاً بالرفيق الأعلى (عام 1986م) يقول فيها:

يا راحلين إلى رباعرفات	مستمطرين سحائب الرحمات
مهلاً فجلقُ أصبحت مبهوتة	مذ بنتمُ يا خيرة السادات
والمسجد المحزون بات لفقدكم	قيدَ الجوانح واكف العيرات
وأصاب قلبي لوعةٌ إذ قيل لي	أزفَ الرحيل لموطن الرحمات

شَطُّ الحَبَائِبِ أَفدَحِ النُّكَبَاتِ

ما كنت قبل اليوم أعلم أنه

كانت محافلنا به نُضَمِّراتِ

مهلاً نودع سيداً ذا منصب

رحمك الله يا شيخنا الجليل، وأسبغ عليك رضوانه، وأعلى في الجنان مقامك، وجزاك عنا
خير ما جزى عالماً عن تلامذته، ومصلحاً عن أمته، وراعياً عن صحبته. إنه سميع مجيب، والحمد لله
رب العالمين.

د. محمد حسان الطيان

الكويت 2008/1/7م

